الله فى التحليل النفسي
جدلية المقدس والإنسانى عند إريك فروم

أ.د. حسن حماد[1]

فروم وفرويد:

لا يمكن لنا أن نتحدث عن " **إريك فروم**" دون أن نذكر " **فرويد** " والذى يُعد الأب الروحى للمدرسة الفرويدية ؛ وفروم نفسه يعترف بذلك فى كل مؤلفاته وعلى سبيل المثال فى كتابه "***الإنسان لنفسه***" يؤكد فروم أن فرويد كمفكر إنسانى لا يقل أهمية عن أى مفكر من مفكرى عصر النهضة، فهو يُبدى إيماناً حاراً بالحقيقة، كهدف على الإنسان أن يناضل من أجله، وهو يثق فى قدرة الإنسان على الاستمرار فى هذا النضال طالما يمتلك قوة العقل؛ ويتضح هذا الإيمان بالعقل فى فكرة فرويد عن التحليل النفسى، فالتحليل النفسى لديه هو محاولة للكشف عن حقيقة الإنسان . وبهذا فإن فرويد إنما يواصل تلك الجهود العظيمة التى قام بها " بوذا " و " سقراط" ... وغيرهم والتى تقوم على الإيمان بالحق كقوة تساعد على التحرر وعلى أن يكون الإنسان فاضلاً[2].

كذلك يشير ***فروم*** إلى أن ***فرويد*** هو أول من درس الدوافع اللاشعورية دراسة تجريبية وبتفصيل كبير، وهو بذلك يُعد أول من وضع أسس نظرية الدوافع اللاشعورية . ويعتبر هذا المفهوم ذا أهمية كبيرة ليس فحسب فى مجال الدراسات السيكولوجية، ولكن أيضا فى المجال الأخلاقى إذ لا يجب أن ننظر إلى كل ما هو لا شعورى فى الذات الإنسانية على إنه شىء دنىء بل يمكن أن يكون سامياً أيضاً[3].

---

[1] جمهورية مصر العربية

[2] Erich Fromm : Man For Himself, Rout ledge & Kegan Paul Ltd., London , 1967, pp 35-36.

[3] Ibid : P33

ويأخذ ***فروم*** على ***فرويد*** أنه لم يستطع أن يوظف بشكل جيد مفهومه عن الدوافع اللاشعورية خاصة فى المشكلات الأخلاقية والإنسانية التى تتعلق بموقف الإنسان ومصيره، ومن ثم يرى فروم أن علم النفس يجب أن يتأسس على الفهم الأنثروبولوجى ـ الفلسفى للوجود الإنسانى[4].

وبرغم أن ***فرويد*** بدأ حياته طبيبا وانشغل بعلاج أشكال معينة من الأمراض إلا أنه توغل بعيداً فيما وراء الطب واتجه صوب الاهتمام بتحليل الأزمة الحضارية والروحية للإنسان، وقد قاده هذا الاهتمام إلى تخصيص عدد من أبحاثه لنقد وتحليل الظاهرة الدينية وسوف يكون مهماً لموضوع بحثنا أن نتوقف قليلاً عند موقف فرويد من الدين بوصفه مقدمة لا غنى عنها للولوج إلى رؤية فروم الفلسفية عن الدين.

لقد تصدى فرويد لدراسة المسألة الدينية فى عدد من مؤلفاته التى كتبها فى فترات متفرقة ؛ ففى عام 1913 كتب " **التوتم والتابو**"، وفى عام 1927 كتب "**مستقبل وهم** "، وفى عام 1930 كتب " **الحضارة ومنغصاتها**" وفى عام 1937 كتب " **موسى والتوحيد**". وفى هذه المؤلفات وغيرها يرى فرويد أن مصدر الدين يكمن فى عجز الإنسان عن مواجهة قوى الطبيعة الخارجية أو مواجهة القوى الغريزية بداخله . وقد نشأ الدين فى مرحلة مبكرة من تاريخ الإنسان عندما لم يكن بمستطاع الإنسان أن يوظف قواه العقلية فى السيطرة على هذه القوى الخارجية والداخلية . فبدلا من أن يتعامل مع هذه القوى بعقله، تعامل معها بوسائل عاطفية أو وجدانية أخرى كان دورها كبت هذه القوى والسيطرة عليها.

وفى هذه العملية يُنمى الإنسان ما يسميه فرويد بالوهم. ويستمد هذا الوهم مادته من الخبرة الفردية الخاصة بالطفل، وحين يواجه الإنسان خطراً لا يمكن السيطرة عليه أو فهمه يمارس عملية نكوص إلى تجربته الأولى عندما كان طفلاً،

---

[4] Ibid : P45

حيث كان يشعر بالأب الذى يوفر له الحماية، الأب الذى يمتلك الحكمة الفائقة والقوة، والذى يمنح أبنائه الحب والحماية طالما يطيعونه ويتجنبون عصيانه[5].

وعلى هذا النحو فإن الدين طبقا لفرويد هو تكرار لتجربة الطفولة، فالإنسان يتعامل مع القوى التى تهدده بنفس الأسلوب الذى كان يتبعه عندما كان طفلاً، إنه يواجه شعوره بعدم الأمان بالاعتماد على أب يعجب به ويخافه فى وقت واحد[6].

ولا يكتفى فرويد بقوله أن الدين وهم، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يرى أن الدين خطر لأنه يتحالف مع مؤسسات إنسانية قمعية مما يضفى على هذه المؤسسات مسوحاً من القداسة، فضلاً عن أن ما يقوم به الدين من ترسيخ للوهم وتحريم للتفكير النقدى يجعله مسئولاً عما أصاب العقل البشرى من تدهور وانحطاط[6].

وبرغم أن فرويد يعترف بأن الدين قد يفلح فى حماية الإنسان من العصاب الفردى إلا أن الثمن الذى جنته الإنسانية من وراء الدين يبدو فادحاً فى رأى فرويد، وهو يؤكد هذا المعنى فى كتابه الحضارة ومنغصاتها بالقول:" إن الدين يفرض على الجميع وبصورة متكافئة أسلوبه الخاص لبلوغ السعادة وتجنب الألم. وتقوم تعاليمه على الحط من قيمة الحياة وتشويه صورة العالم الواقعى بطريقة مضللة. وهذا الأمر يستلزم إرهاب العقل، وبهذا الثمن ومن خلال قهر الدين لا تباعه، والعمل على إبقائهم أطفالاً وإدخالهم جميعا فى حالة من الوهم الجمعى ينجح الدين فى حماية بعضهم من العصاب القهرى، ولكن هذا أقصى ما يستطيعه الدين"[7].

---

[5] Erich Fromm : Psychoanalysis and Religion, London, Victor Gollancz Ltd, 1951, P.19

[6] Ibid: p19

[7] Sigmund Freud : Civilization and its Discontents, Norton & Company, New York . London ,1961, P.36

ويرى إريك فروم أن فرويد هو امتداد لفكر التنوير لأن نقده للدين هو من جانب آخر دفاع عن تلك القيم المهددة بالضياع بفعل الدين، ونعنى بهذه القيم: قيم العقل والحرية والأخوة والصدق .. إلخ.

ولهذا يدعونا فرويد إلى التخلى عن وهم الإله الأبوى. إن غاية التطور البشرى هى أن نتغلب على هذا التثبيت الطفولى، وأن نواجه وحدتنا وعزلتنا مستندين فقط على قوانا الشخصية وقوة عقلنا.هنا فقط نستطيع أن ندرك عالمنا إدراكاً موضوعياً ودون وهم، ونكف عن أن نكون أطفالاً، ويكون لدينا الجرأة الكافية لنحرر أنفسنا من الخضوع للسلطة بكافة أشكالها[8].

إن فرويد بالتأكيد أكثر راديكالية فيما يتصل بموضوع الدين من " إريك فروم " الذى حاول أن يتخذ موقفا وسطا أشبه بالموقف الذى اتخذه "كانط" حيال الدين، فهو يرفض الدين بصورته التقليدية المؤلهة، ويحاول أن يقدم لنا ديناً يسميه الدين الإنسانى، والذى لا يفرق فيه بين المذاهب الفلسفية وبين الديانات الوضعية الإنسانية وكذلك الديانات الإبراهيمية أو الكتابية. وفى سبيل الوصول إلى هذا الهدف قام فروم بعملية مزدوجة، فهو من جانب حاول أن يفتش فى أعماق التوراة ليستخرج لنا الأبعاد الإنسانية والتحررية فى الدين اليهودى، ومن جانب آخر يضع شخصيات دينية مثل " بوذا وزرادشت وموسى " فى سلة واحدة مع "سقراط وسبينوزا ونيتشه وماركس وفرويد"، ويزعم أن خيطاً مشتركاً يوحد بين هؤلاء جميعا، هذا الخيط يتمثل فيما يسميه برغبتهم فى إنقاذ روح الإنسان وتأكيد إنسانيته وكرامته، ولنتابع فروم فى هذه المغامرة التى تحمل قدراً كبيراً من التناقض مثلما تنطوى على جرأة وعلى طرافة فكرية لا يمكن لمنصف أن ينكرها . ولنبدأ من تحليل فروم لطبيعة الوجود الإنسانى، لأن فروم شأنه شأن فرويد يعد بصورة أو بأخرى فيلسوفاً نسقيا، وبالتالى لا يمكن الفصل بين موقفه الأنثروبولوجى ـ الفلسفى وبين فلسفته الدينية.

---

[8] Fromm : The sane society , Holet , Rinehart and Winston , New York , 1962 , pp 22-23

الطابع التناقضى للوجود الإنسانى :

يرى فروم أن هناك حالة من الوجود الحيوانى قد سبقت الوجود الإنسانى، وقد تميزت هذه الحالة بانخضوع التام لقوانين الطبيعة البيولوجية، فلم يكن الحيوان يمتلك الوعى بذاته، الوعى الذى يساعده على تجاوز الطبيعة، ولم يكن يمتلك العقل الذى يساعده على التحرر من سيطرة الغريزة. ولكن عندما بلغ الحيوان حداً من التطور جعله يتحرر من انخضوع لقوانين الطبيعية، ويتجاوزها، وعندما لم تعد أفعاله وتصرفاته خاضعة خضوعا تاما لغرائزه ولد كائن جديدا أسمه الإنسان[9].

ولم يقتصر دور هذه الملكات فى رأى فروم على انفصال الإنسان عن الطبيعة، بل أنها جعلت من وجود الإنسان ظاهرة فريدة فى نوعها: " فهو جزء من الطبيعة خاضع لقوانينها، ولا يستطيع منها فراراً، ومع ذلك فهو يعلو باقى الطبيعة. والإنسان نوع بمفرده على الرغم من أنه جزء من هذه الطبيعة، إنه بلا مأوى ومع ذلك فهو مقيد بمأوى يقاسمه فيه بقية الكائنات، قذف به فى زمان ومكان عرضيين بالصدفة، وهو مجبر على انخروج منه بالصدفة أيضاً. ولأنه على وعى بذاته فإنه يتحقق من عجزه وخوائه، ومحدودية وجوده، ويتمثل نهايته ألا وهى الموت. إنه لا يستطيع أن يتحرر أبدا من انقسامية Dichotomy وجوده، ولا يستطيع أن يتخلص حتى من عقله إذا أراد، ولا يستطيع أن يتحرر من جسده أيضا . فطالما أنه يحيا فإن جسده يدفعه للحياة[10].

إن هذه الفرضية السابقة تتكرر فى معظم مؤلفات فروم، وهى تشكل الفكرة المفتاح بالنسبة لنسقه الفكرى، ولهذا فإن تطور الفكر الدينى يترافق مع هذه المسيرة المتطورة للوعى الإنسانى . ففى كتابه عن "فن الحب " يتعرض لنفس القضية ؛ إذ يذكر أن الإنسان الذى انفصل عن الطبيعة الأم وتحرر من قيود الدم والمنبت لا يزال يحن إلى العودة إلى هذه الروابط الأولية . إنه يشعر بأمانه فى الارتداد إلى

---

[9] Fromm : The sane society , Holet , Rinehart and Winston , New York , 1962 , pp 22-23

[10] Fromm : Man For Himself, P40

هذه الروابط الأولى. إنه لا يزال يشعر أنه متحد مع عالم الحيوانات والأشجار والأنهار والأرض، ويحاول أن يعثر على الوحدة أو الاتحاد بأن يبقى غير منفصل عن العالم الطبيعى . والأديان البدائية خير شاهد على هذه المرحلة من الحنين والتطور . فالحيوان يتحول إلى توتم أو معبود، يرتدى الإنسان أقنعة على شكل حيوانات سواء فى الاحتفالات الدينية أو الحرب، الإنسان يعبد حيواناً على أنه إله وفى مرحلة تالية من التطور عندما تكون المهارة الإنسانية قد تطورت إلى مستوى الحرفية والفنية، عندها لا يكون معتمدا بأية حال من الأحوال على هبات الطبيعة (الثمرة التي يقطفها، والحيوان الذى يصطاده) فى هذه المرحلة يحول الإنسان نتاج يده إلى إله، وهذه هى مرحلة عبادة الأوثان المصنوعة من الطين أو الفضة أو الذهب . إن الإنسان هنا يقذف ذاته بقواه ومهاراته فى الأشياء التى يصنعها.

وهكذا وبطريقة مغتربة يعبد براعته، يعبد ممتلكاته . وفى مرحلة تالية يعطى الإنسان آلهته شكل البشر . ويبدو أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا عندما يصبح الإنسان أكثر وعيا بذاته وعندما يكتشف أن الإنسان هو أسمى وأكرم كائن فى الوجود . فى هذه المرحلة من عبادة إله مصطبغ بالصبغة الإنسانية نجد تطوراً يمضى فى اتجاهين : تطور يشير إلى الطبيعة الأنثوية والذكرية للآلهة، وتطور يشير إلى درجة النضج التى حققها الإنسان والتى تحدد طبيعة آلهته وطبيعة علاقته بها[11].

الموقف الدينى لإريك فروم :

تُرى ما هو الموقف الدينى لـ فروم، ذلك المفكر اليهودى الذى عانى مثل غيره من مفكرى مدرسة فرانكفورت من اضطهاد النازى وتبنى فلسفة أشتراكية إنسانية وظل طيلة حياته يدافع عن الحرية وحق الإنسان فى الاستقلال وأن يكون نفسه ؟

[11] إريك فروم : فن الحب ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1980 ، ص ص 106-105

بداية فإن فروم يقدم لنا نفسه بوصفه مفكراً علمانياً لا يؤمن بالله وليس لديه أية قناعات فى أن الكتاب المقدس هو كلام الله، ومع ذلك فإنه يصف هذا الكتاب بأنه يعبر عن رؤية عبقرية للعالم، رؤية ما تزال صالحة وتنتظر التحقيق . ويصف فروم هذا الموقف بقوله : " إننى لا أنظر إلى العهد القديم على إنه كلمة الله، ليس فقط لأن التقصى التاريخى يبين إنه كتب من خلال إناس مختلفين، عاشوا فى أزمنة مختلفة، ولكن أيضا لأنى لست مؤمنا بالله . ومع ذلك فهو بالنسبة لى كتاب خارق للعادة يعبر عن الكثير من المعايير والمبادئ التى حافظت على صلاحيتها عبر آلاف السنين . إنه كتاب يكشف عن رؤية رجال، وهى رؤية ما تزال صالحة وتنتظر التحقيق . إنه لم يكتب من خلال رجل واحد، ولم يمليه الرب. إنه يعبر عن عبقرية أناس ناضلوا من أجل الحياة والحرية عبر أجيال متعددة "[12].

وعندما يقارن فروم نفسه ببعض المعلمين والحاخامات الذين درس من خلالهم العهد القديم والتلمود من أمثال "لودفيج كراوس" Ludwing Krouse "ونحميا نوبل" Nehemia Nobel، "وسالمان بى رابينكو" Salman، B. Rabinkow يعترف بأنه أقل منهم معرفة بالدراسات اللاهوتية، وإنه يختلف عنهم فى أنه لا يؤمن باليهودية ولا يمارسها . يقول فروم: " ولكونى لست ممارسا لليهودية ولا أؤمن بها، فإننى فى وضع مختلف وأقل منهم، وهذا ما حدا بى لأن أتجرأ لتحمل مسئولية الآراء التى جاءت بهذا الكتاب، ومع ذلك فإن أفكارى نبعت من تعاليمهم "[(13)].

ويصف فروم موقفه الدينى بتعبير شديد التناقض والغرابة، إذ يسميه نوعا من " التصوف الإلحادى " Nontheistic Mysticism[(14)].

ويتضح هذا التناقض بصورة أكبر عندما يتحدث فروم عن اليهودية بنوع من الإجلال والتقديس الذى لا يقل شأناً بأية حال من الأحوال عن لغة أحد

---

[12] Fromm: You Shall Be Gods. A Radial Interpretation of the old Testament and its Tradition, Henry Holt and Company, New York, 1966 , 1991, P6

[13] Ibid: P8

[14] Ibid: P10

المتدينين التقليديين، ويبدو أننا سنضطر إلى تطبيق أدبيات التحليل النفسى على شخصية فروم نفسه، فهو على مستوى الشعورى يبدو علمانياً ملحداً ولكنه على مستوى اللاشعور يكشف عن يهوديته المستترة، وتعالوا معى ننصت إلى لا شعور فروم وهو يتحدث عن التوراة، فيقول:" نحن نعرف بالطبع أن الكتاب المقدس العبرى يعد واحداً من المصادر الرئيسية الملهمة ليس فقط لليهودية.

بل وأيضا للمسيحية والإسلام، وبالتالى فقد أثرت تعاليمه بعمق على التطور الثقافى لأوربا وأمريكا والشرق الأدنى. ومع ذلك فإنه لا يمثل اليوم بالنسبة لليهود والمسيحيين سوى صوت محترم للماضى . ويُقرأ العهد القديم بين معظم المسيحيين بصورة ضيقة وبالمقارنة مع العهد الجديد، فضلاً عن أن الكثير مما يُقرأ يُشوه بطريقة متعمدة. وفى غالب الأمر يُعتقد أن العهد القديم يعبر حصريا عن مبادئ العدالة والانتقام، وعلى النقيض يمثل العهد الجديد مبادئ الحب والرحمة"[15].

ويقول أيضا:"...العهد القديم كتاب ثورى موضوعه تحرير الإنسان من الروابط الأولية الخاصة بالدم والأرض، ومن الخضوع للأصنام، ومن العبودية ومن الطغاة "[16].

على أية حال فإن فروم فى كتابه " سوف تكونوا آلهة " يصف منهجه بأنه " ذو نزعة إنسانية راديكالية، وهو يشرح هذه النزعة بقوله: " إن تفسير الكتاب المقدس المقدم فى هذا الكتاب ذو نزعة إنسانية راديكالية، وتشير الإنسانية الراديكالية هنا إلى فلسفة كونية تؤكد وحدة الجنس البشرى وقدرة الإنسان على تطوير قدراته وبلوغ حالة من التناغم الداخلى وإقامة عالم يسوده السلام . وتعنى الراديكالية الإنسانية أن هدف الإنسان هو الاستقلال التام ... إنها تتضمن أيضا موقفاً متشككاً نحو استخدام العنف، لأن العنف كان خلال التاريخ الإنسانى وما يزال هو الذى يخلق الخوف، ذلك الخوف الذى جعل الإنسان مستعداً لأن يحول الخيال إلى واقع

---

[15] Ibid: P4

[16] Ibid: P5

والوهم إلى حقيقة . إن هذا العنف هو الذى جعل الإنسان عاجزاً عن الاستقلال، ومن ثم فقد أدى إلى تشويه فكره ومشاعره "[17].

وعلى طريقته المفضلة فى المزج بين المتناقضات الفكرية يذهب فروم إلى أن بذور هذه النزعة الإنسانية الراديكالية الكامنة فى المصادر القديمة للعهد القديم، قد تم الكشف عنها عبر تعرفنا على الراديكالية الإنسانية التى كانت لدى عاموس Amos وسقراط ولدى أصحاب النزعة الإنسانية فى عصرى النهضة والتنوير عند كانط وهيردر وليسنج وجوته وماركس وشفايتزر[18].

الدين التسلطى والدين الإنسانى :

يرفض فروم تلك الوصاية التى تمارسها الديانات التوحيدية الإبراهيمية على الديانات الأخرى بوصفها معياراً أو إطاراً مرجعياً نُقيم ونفهم من خلاله الديانات الأخرى كالبوذية والطاوية والكونفوشيوسية، التى تبدو لا دينية من وجهة نظر الديانات المؤلهة، مع أنها تستحق هذا الاسم على الأقل من الناحية النفسية .

ويقدم لنا فروم تعريفاً محدداً للدين كما يفهمه ويمارسه : " أنا أفهم الدين بأنه أى نظام للفكر والعمل تشترك فيه جماعة معينة ويمنح أفراده إطاراً للتوجيه وموضوعاً للعبادة"[19].

ولأن الحاجة إلى نظام للتوجيه والعبادة يعد جزءاً أساسياً من بنية الوجود الإنسانى، لذلك يمكننا أن نفهم مدى قوة وأهمية هذه الحاجة بالنسبة للإنسان . ويرى فروم إنه لا يوجد مصدر للطاقة داخل الإنسان أقوى من هذا المصدر، فالإنسان ليس حراً فى أن يختار أن تكون له قيماً عليا أو لا تكون، لكنه حر فى الاختيار بين أنواع مختلفة من المثل، بين أن يكرس جهده لعبادة القوة والتدمير، أو ينمى طاقات العقل ومشاعر الحب "إن المسألة ليست ديناً أو لا دين بل أى نوع

---

[17] Ibid: P8

[18] Ibid: P9

[19] Fromm : Psychoanalysis and Religion, : P29

من الدين . هل هذا الدين من النوع الذى يدعم تطور الإنسان ويكشف عن قواه الإنسانية الخاصة، أم أنه من النوع التى يصيب تلك القوى بالشلل "[20].

ويفرق فروم بين نوعين من الديانات : الدين التسلطى، والدين الإنسانى .

الدين التسلطى :

فى هذا النوع من الدين يستسلم الإنسان لقوة أعلى من الإنسان . هنا تصبح الفضيلة الأساسية فى هذا الشكل من الدين هو الطاعة، والخطيئة الكبرى هى العصيان . وفى هذه الديانة يُصور المعبود deity على إنه شامل القدرة أو الإرادة، بينما يُصور الإنسان فى حالة من العجز والتفاهة، ولا يشعر بالقوة إلا بمعونة وفضل المعبود ومن خلال الإذعان المطلق له . ويعتبر الخضوع لسلطة مطلقة هو أحد الأساليب التى من خلالها يهرب الإنسان من إحساسه المرعب بالوحدة والمحدودية . ففى فعل الإذعان أو الخضوع يفقد الإنسان استقلاله وتكامله بوصفه فرداً، ولكنه فى مقابل ذلك يكتسب الشعور بأن هناك قوة رهيبة تحميه ويصبح جزءاً منها[21].

أما **الدين الإنسانى :**

فهو على العكس تماما من الدين التسلطى أو القمعى إذ أن "هدف الإنسان فى الدين الإنسانى هو أن يحقق أكبر قدر من القوة وليس أكبر قدر من العجز. الفضيلة هنا هى تحقيق الذات لا الطاعة، والإيمان هو يقين الاقتناع القائم على خبرة الفرد فى مجال الفكر والمشاعر، وليس على التسليم بافتراضات تعتمد على الثقة فيمن يقدمها . والحالة المزاجية لهذا الدين هى الفرح، فى حين أن المزاج السائد لدى الديانات التسلطية هو الشعور بالمحنة Sorrow والذنب "[22].

ويذكر فروم عدداً من الأمثلة التى توضح ما يقصده بالديانات الإنسانية منها : البوذية المبكرة، الطاوية، تعاليم يسوع وسقراط واسبينوزا، بعض الاتجاهات فى

20

21 Ibid: P43

22 Ibid: P45

الديانتين اليهودية والمسيحية، خاصة التصوف، ديانة العقل الخاصة بالثورة الفرنسية . إن التمييز بين الدين التسلطى والدين الإنسانى يتقاطع مع التمييز بين الديانات المؤلهة وغير المؤلهة كما يتقاطع بالمثل مع التمييز بين الأديان بالمعنى التقليدى الضيق وبين المذاهب الفلسفية ذات الطابع الدينى . إن ما يعنينا من هذه المذاهب جميعا ليس مضمونها الفكرى، بل الموقف الإنسانى الذى يكمن خلف معتقداتها[23].

ولعل هذه النقطة الأخيرة تذكرنا على الفور بتلك التفرقة التى أقامها هيجل بين – ما أطلق عليه – الدين الوضعى، والدين الذاتى . الدين الوضعى يمثل كل ما هو مفروض على الإنسان من سلطة خارجية ويتعارض مع الحرية والعقل، أما الدين الذاتى فهو الدين الإنسانى الذى لا يتعارض مع الحرية أو الاعتراف بقدرة العقل، بمعنى آخر الدين الوضعى يؤدى إلى اغتراب الإنسان واستلاب ذاته، والدين الذاتى يؤكد حريته ويساعد على تكامل ذاته[24].

ولا شك فى أن صورة الإله فى كل من الديانتين الإنسانية والتسلطية سوف تختلف وتمايز " فعلى حين يكون الإله فى الديانة الإنسانية هو لذات الإنسان العليا ورمزاً على ما يحتمل أن يكونه الإنسان أو ما ينبغى أن يكونه، نجد أن الإله فى الديانات التسلطية يصبح هو المحتكر لما كان يملكه الإنسان أصلاً : عقله وحبه . وكلما أصبح الله أكثر كمالاً كلما أصبح الإنسان أكثر نقصاً، إنه يسقط أروع ما يملك على الإله وبالتالى يفقر ذاته . الآن يمتلك الله كل الحب، كل الحكمة، كل العدل . أما الإنسان فإنه يفتقر لهذه الصفات، إنه خاوى وفقير "[25]

وإذ يسقط الإنسان أجمل وأغلى صفاته الخاصة على الإله تصبح هذه الصفات منفصلة عنه، وفى هذه العملية يصبح مغترباً عن ذاته، فكل ما كان يملكه أصبح الآن ملكاً للإله، ولم يعد أمامه من وسيلة يقترب بها من نفسه سوى التقرب إلى الله . فمن خلال عبادته للإله يحاول جاهداً أن يتصل بذلك الجزء المغترب من

---

[23] Ibid: P45

[24] محمود رجب : **الاغتراب** ، الجزء الأول ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1978 ، ص 128.

[25] Fromm : Psychoanalysis and Religion, PP 56-57

ذاته والذى فقده أثناء عملية الإسقاط، وها هو الآن يتوسل إلى الله كى يعيد إليه بعضاً مما فقده، بعضا مما كان يملكه من تلك الكنوز الضائعة[26].

إن فروم هنا يستدعى " فيورباخ" بقوة بل إننا فى الفقرات السابقة نكاد نشعر بأنفاس فيورباخ تتردد بين كلمات وعبارات إريك فروم . لقد عبر فيورباخ فى كتابه " جوهر المسيحية " عن هذا المعنى، إذ يبين أنه كلما شعر الإنسان بالضعف والنقص والتفاهة، ازدادت قوة وجبروت الإله بوصفه ماهية الإنسان الحقيقية التى اغتربت عنه وتحولت إلى قوة متعالية ومفارقة تسكن عالم السماء.

وفى هذا السياق يقول فيورباخ : " إن الدين أو على الأقل الديانة المسيحية هى علاقة الإنسان بنفسه .. ولكنها علاقة يتم إدراكها كطبيعة مستقلة عن ذاته .. الكائن المقدس ليس شيئاً آخر سوى الوجود الإنسانى أو بالأحرى الطبيعة الإنسانية بعد أن تم تنقيتها وتحريرها من محدودية الإنسان الفردى، وجعلها موضوعية .. ومن ثم فإن كل الصفات التى ننسبها للطبيعة المقدسة هى صفات الكائن الإنسانى "[27].

" إن الدين هو حلم، تبدو فيه تصوراتنا ومشاعرنا وكأنها وجود مستقل، كائنات خارج ذاتنا، فالعقل الدينى لا يميز بين الذاتى وبين الموضوعى "[28].

الله بوصفه تجربة إنسانية :

لم يحاول فروم أن يشغل نفسه بتقديم عدد من الصفات التى تميز ماهية الإله على النحو الذى كان يحلو لفلاسفة الأديان القيام به . وبدلا من أن يضيع وقته فى هذا الجهد العبثى يتجه بصورة مباشرة إلى تحليل تجربة أو خبرة الإيمان لدى الإنسان، فهو يرى أن مفهوم الله هو تعبير تاريخى مشروط بالخبرة الإنسانية، أو كما يقول :

" إننى أعتقد أن مفهوم الله هو تعبير تاريخى مشروط بخبرة داخلية ما " .

---

[26] Ibid: P57

[27] Ludwig Feuerbach : the Essence of Christianity, Trans by George Eliot Harper, Torch Books, New York , 1957, P14

[28] Ibid: P204

" إن الكلمات والمفاهيم التى تشير إلى الظواهر المتصلة بالخبرة النفسية أو العقلية تنمو وتتطور ـ أو تتدهور ـ لدى الشخص طبقا للخبرة التى تشير إليها أنها تتغير مثلما يتغير ؛ إن لها حياتها مثلما له حياة"[29].

فإذا قال طفل عمره 6 سنوات لأمه : " أنى أُحبك "، فإنه يعكس فى عبارته تلك خبرة الحب التى تنتمى لسن السادسة من العمر . أما إذا كبر هذا الطفل وصار رجلاً وقال لامرأة : " أنى أُحبك " فإنه بلا شك يتحدث عن معنى آخر تماماً ويعايش خبرة مختلفة، إنه يتحدث عن معنى آخر أكثر بعداً وأشد عمقاً . وبرغم أن العاطفة هنا واحدة والنواة مشتركة، إلا أن الخبرة التى تشير إليها كلمة حب مختلفة فى الطفل والرجل تماماً مثلما تختلف بين رجل وآخر[30].

وينبهنا فروم إلى أن التعبير النظرى عن الخبرة الإنسانية لفكرة الإله يجعلها عرضة للإنزلاق إلى الأيديولوجيا . وهذا يعود إلى طبيعة العلاقة بين الخبرة والمفهوم، إذ أنهما غالباً لا يتطابقان بسبب أن المفهوم يعجز عن التعبير بشكل مناسب عن الخبرة التى يشير إليها، فالأصبع الذى يشير إلى القمر ـ كما يذهب " بوذى الزن" – يشير إلى تصور ما عن القمر، لكنه لا يشير إلى القمر ذاته، فهو مجرد إشارة ليس إلا . فقد يشير أحد الأشخاص على خبرته عن الله بالمفهوم ×، وقد يستخدم مجموعة أشخاص المفهوم أو الرمز × للدلالة على خبرة مشتركة يتشاركون فيها . وفى هذه الحالة وغيرها من الحالات لن يكون المفهوم أو الرمز سوى تعبير تقريبى عن هذه الخبرة . ويرجع ذلك إلى أن خبرة الشخص الواحد لا يمكن أن تتطابق مع خبرة شخص آخر . حتى خبرة الشخص الواحد تختلف من موقف إلى آخر، لأنه لا يمكن لأى إنسان أن يكون نفس الشخص فى لحظتين مختلفتين من حياته . ومع ذلك فإن للمفهوم أو الرمز ميزة عظيمة إذ إنه يسمح

---

[29] Fromm : You Shall Be Gods . P10

[30] Ibid: P10.

للناس أن يحققوا ضرباً من التواصل عبر خبراتهم تلك، غير أن خطورته تكمن فى إمكانية الاستخدام المغترب لهذه المفاهيم أو الرموز[31].

والاستخدام المغترب للمفاهيم هو الذى يحيلها إلى نوع من الأيديولوجيا، ويفسر فروم " الاغتراب الأيديولوجى" من خلال تلك النزعة الكامنة فى الوجود الإنسانى، والتى تسعى نحو النسقية والتمامية أو الكمالية . وأحد جذور هذه النزعة تتجلى فى الرغبة فى بلوغ اليقين . فعندما نعرف بعض الحقائق عن الواقع نسعى لاستكمالها بحيث يبدو لها معنى . ونظراً للطبيعة المحدودة للإنسان، ولأن معارفنا غير كاملة، لذلك نميل إلى اصطناع بعض الإضافات التى من شأنها أن تجعل تلك المعارف المتشظية تبدو وكأنها كلاً متكاملاً. وفى معظم الأحيان نفقد الوعى بالفرق بين تلك الشظايا والإضافات، وذلك بسبب رغبتنا الجامحة فى امتلاك اليقين[32].

وفى كتابه : " أما الملكية أو الكينونة " To Have Or To Be يكشف لنا فروم وهم امتلاك الإنسان لأى حقيقة كاملة . فالإيمان فى إطار التملك هو أن يملك الشخص إجابات جاهزة عن الأسئلة المطروحة دون أن يكون لديه دليل عقلانى عليها . ويقوم هذا النوع من الإيمان على الإذعان أو التسليم بالأفكار أو المعتقدات القديمة أو السائدة التى تنتمى إلى جماعة بشرية معينة أو إلى ديانة من الديانات . وهذا النوع من الإيمان يريح الفرد من أشق مهمة، وهى مهمة التفكير واتخاذ القرار . وبهذا الإيمان " ... يصبح الشخص واحداً من المالكين السعداء للعقيدة الصحيحة . الإيمان فى أسلوب التملك يمنح اليقين، ويّدعى الوصول إلى المعرفة النهائية الراسخة، المعرفة المسلم بصحتها لأن قوة من يدعو إليها ويصونها قوة قادرة لا

---

[31] Ibid: P11

[32] Ibid: P11

تتزعزع . وما أيسر أن يختار الإنسان اليقين إذا كان المطلوب منه أن يتنازل عن استقلاليته "[33].

إن إريك فروم هنا يقدم توصيفاً دقيقاً لأزمة الفكر الدينى الأصولى أو السلفى ـ خاصة الإسلام ـ الذى يستند فى زعمه امتلاك الحقيقة أما إلى النص المقدس أو إجماع الفقهاء . ومن خلال هذه الآلية يتم إقصاء العقل، وقمع أى رغبة فى الاستقلال، أو الاختلاف، أو النقد . ومن شأن هذا النوع من التفكير الدوجمائى، أو اليقينى أن يؤدى إلى التكفير، ومن ثم إلى العنف المقدس، العنف الذى يمارس باسم الدين أو الإله.

وينطوى التفكير الدوجمائى على مفارقة هى أن أى دوجما من حيث هى مطلق تعتبر الدوجمات الأخرى نسبية . وتعتبر نفسها الدوجما الوحيدة المطلقة، ومعنى ذلك أن الدوجمائى لا يقبل التعددية ولا يعترف بالبدائل . ولكن استحالة البدائل المطلقة لن يعنى نفى المطلقات، ولكنه يعنى بالأساس عدم قدرتها على العيش معاً . وهنا تجئ المفارقة الثانية، ومن شأن هذه المفارقة أن تفضى إلى إشعال الحروب بين المطلقات، ومن ثم تدخل الحرب فى علاقة عضوية مع المطلق، أى القتل باسم المطلق، والقتل فى هذه الحالة يصبح مقدساً من حيث هو ثمرة المطلق . وهنا يبدو التلازم واضحاً بين العنف والمقدس، وهو تلازم يذكرنا بعبارة " هيرقليطس" بأن الإله " ديونيسيوس " واهب البشر الغبطة والسعادة والموحى بالموسيقى والأغانى، وهو أيضا الإله "هاديس " (حاكم العالم السفلى والأشرار . وهو تلازم يذكرنا أيضا باللفظ اللاتينى Sacer والذى يعنى المقدس والملعون فى آن واحد[34].

---

[33] إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر " نملك أو نكون " ، ترجمة سعد زهران سلسلة عالم المعرفة ، العدد 140 ، أغسطس 1989 ، ص 63.

[34] حسن حماد : ذهنية التكفير . الأصوليات الإسلامية والعنف المقدس ، مصر العربية للنشر والتوزيع، 2014 ، ص 90

ونعود إلى إريك فروم والذى يطرح سؤالا مرعبا، ولكن الإجابة التى يقدمها لم تكن بحجم خطورة السؤال . سؤال فروم هو :

متى أصبح الإنسان منافساً للإله ؟

إن الإجابة المتوقعة وفق مقدمات فروم السابقة وبعيدا عن يهوديته الكامنة يجب أن تستند إلى التراث الإنسانى العظيم لعصرى النهضة والتنوير، وإلى اللحظة التاريخية الفارقة التى استطاع فيها الإنسان أن يتحرر من الخضوع للسلطات الدينية الظلامية فى العصور الوسطى، وأن يشق طريقه نحو المستقبل مستنداً إلى عقله وإرادته وإيمانه بذاته.

إن الإجابة التى يقدمها فروم – للأسف – تتخذ مرة أخرى منحى لاهوتياً، إذ يعيد فكرة لا يمل من تكرارها وترديدها فى العديد من مؤلفاته، وهى فكرة مستوحاة من التوراة، إذ يذكر أن لحظة التمرد على الإله هى لحظة الميلاد الحقيقى للإنسان . فمنذ أن تجرأ الإنسان وأكل من الشجرة المحرمة، شجرة المعرفة أصبح واعياً بإنسانيته وممتلكاً للمعرفة . وكان يمكن أن يحقق الخلود لو استطاع أن يأكل من شجرة الحياة لولا أن طرده الرب من جنته ليهبط الأرض كى يسكنها ويعمرها . وفى هذا المعنى يقول فروم : " فى هذه المرحلة الأولى من هذا التطور يبدو الله بمثابة الحاكم المطلق، فهو الذى خلق الطبيعة والإنسان، وإذا لم يرض عنهما فبوسعه تدمير كل ما خلقه . ومع ذلك فإن هذه السلطة المطلقة لله يقابلها الإنسان بوصفه المتحدى المحتمل لله . فالإنسان يستطيع أن يكون إلها إن استطاع، فقط أن يأكل من شجرة المعرفة وشجرة الحياة، ثمرة شجرة المعرفة تمنح الإنسان حكمة الإله، وثمرة شجرة الحياة تمنحه خلود الإله . وبغواية من الحية أكل آدم وحواء من شجرة المعرفة . وبذلك فقد أخذ الخطوة الأولى من الخطوتين .. وتحدى الإنسان السلطة العليا لله وأصبح قادراً على التحدى لأنه من المحتمل أن يصبح إلهاً، وأصبح التمرد هو أول فعل للإنسان .. ولأن الله يريد أن يحافظ على تفوقه من خلال فعل القوة، لذلك فقد طرد آدم وحواء من جنة عدن وبذلك أحال بينهما وبين اتخاذ الخطوة الثانية التى

تجعل منهما إلهين إذا أكلا من شجرة الحياة ... وبعد أن طرد الإنسان من جنة عدن بدأ حياته المستقلة . وبذلك أصبح أول فعل للتمرد أو العصيان هو بداية التاريخ البشرى، بداية الحرية الإنسانية[35].

ويستشهد فروم فى تأكيد فكرته السابقة بآيات من النص التوراتى ـ مثلما يفعل الأصوليون ـ ويقتبس هذا النص :

" وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد عارفاً الخير والشر . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد . فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها "[36]. الإصحاح الثالث 22، 23

وكعادته فى خلط الأوراق لا يميز فروم تمييزاً دقيقاً بين التفسير الدينى لعملية ميلاد الإنسان والتفسير الأنثروبولوجى، فمرة يحدثنا عن انفصال الإنسان عن الطبيعة، ومرة يحدثنا عن انفصاله عن العالم المقدس (الجنة)، وتارة أخرى يمزج بينهما، فعندما يتحدث عن النتائج التى نجمت عن ميلاد الإنسان يقول : " لقد أضاع الإنسان الفردوس، وفقد الاتحاد مع الطبيعة، وأصبح المتجول الأبدى (أوديسيوس، أوديب، إبراهيم، فاوست) وهو مرغم على قهر هذا الانقسام الداخلى يعذبه الشوق إلى المطلق، إلى خلق نوع آخر من التناغم يستطيع من خلاله أن يرفع اللعنة التى فصلته عن الطبيعة وعن رفاقه وعن ذاته "[37].

مرة أخرى تلاحظ فى النص السابق، أن فروم يبدأ بأن الإنسان " أضاع الفردوس" وهى فكرة دينية، و "فقد الاتحاد بالطبيعة " وهى فكرة علمانية " وأصبح المتجول الأبدى " . وهنا يضع فروم النبى إبراهيم جنباً إلى جنب مع أوديسيوس وأوديب وفاوست !.

إن فروم المغرم بالجمع بين المتناقضات والمفتون بالمفارقات لا يكترث كثيرا بالفروق التاريخية والمذهبية والفكرية بين الأنبياء والفلاسفة، أو حتى بين

---

35 Fromm : You Shall Be Gods,: P12-13

36 Ibid: P12

37 Fromm : Man For Himself: P41

الشخصيات الأسطورية والشخصيات الحقيقية . لنستمع إليه وهو يتحدث عن الإيمان الحقيقى ـ من وجهة نظره ـ أو الإيمان المستند إلى مبدأ الكينونة وليس مبدأ الملكية.

يقول فروم فى نص يجمع فى بوتقة واحدة كل المذاهب الفلسفية العلمانية والدينية: " يمكن أن نزداد فهماً لنوعية المعرفة فى أسلوب الكينونة بالتعمق فى تأملات مفكرين من أمثال بوذا والمعلم إيكهارت، وسيجموند فرويد، وكارل ماركس . ففى رأى هؤلاء المفكرين تبدأ المعرفة بالوعى بمدى خديعة مداركنا وحواسنا إيانا، بمعنى أن الصورة التى لدينا عن الحقيقة المادية لا تتفق تماما مع الحقيقة الحقيقية . ذلك أن أغلبية الناس أنصاف أيقاظ – أنصاف حالمين، وأنهم على غير وعى بأن ما يرونه حقيقة وأموراً واضحة لا تحتاج لإثبات ليست إلا أوهاما من صنع إيحاءات البنية الاجتماعية التى يعيشون فيها . وتبدأ المعرفة إذن بتبديد الوهم ... يدعو بوذا، ومن صفاته أنه الكائن الذى استيقظ، يدعو الناس إلى أن يستيقظوا ويحرروا أنفسهم من وهم أن اشتهاء الأشياء يؤدى إلى السعادة . ودعا أنبياء اليهود الناس إلى أن يستيقظوا أو يعرفوا أن معبوداتهم ليست إلا أوهاماً من صنعهم . ويقول يسوع المسيح : " والحقيقة تجعلكم أحراراً " .. ويدعو ماركس إلى أن على الإنسان أن يقضى على الأوهام ليخلق الظروف التى تجعل الأوهام غير ضرورية . ويقوم مفهوم فرويد عن " معرفة الذات " على فكرة القضاء على الأوهام والتبريرات ليصبح الإنسان واعياً بالحقيقة اللا أسطورية ... "[38]

ويصل بنا فروم عبر شطحاته الفكرية المتعددة إلى نتيجة أظن أنها مرضية برغم كل شىء، إذ يقرر أن مشكلة الدين ليست هى مشكلة الإله بقدر ما هى مشكلة الإنسان. فليست الصيغ والرموز الدينية سوى محاولات للتعبير عن أشكال متنوعة من الخبرة الإنسانية. وما يعنينا هو طبيعة هذه الخبرات، أما نسق الرموز،

[38] إريك فروم : الإنسان يبين الجوهر والمظهر ، ص ص 60 -61

فهو فقط المفتاح Cue الذى من خلاله نحلل تلك الخبرة لنستكشف الوضع الإنسانى الذى يكمن وراءها[39].

ويذكر فروم أن معظم المناقشات التى اهتمت بالدين منذ عصر التنوير لم تكترث لتلك الخبرة الدينية الإنسانية وركزت اهتمامها فقط أما على تأكيد الاعتقاد فى الإله أو إنكار وجوده، وبالطبع فإن المؤمنين يقرون بوجود إله فى حين ينكر وجوده غير المؤمنين أو الملاحدة الذين اتخذوا موقعا معادياً من الكنيسة[40].

وينبهنا فروم إلى حقيقة أخرى هامة وهى أن كثيراً ممن يعلنون إيمانهم بالله هم فى حقيقة الأمر عبدة أوثان أو بلا إيمان، على حين أن بعض الملحدين ممن يفنون حياتهم فى خدمة الإنسانية وفى أعمال الإخاء والمحبة، هؤلاء قد يعكسون فى مسلكهم اتجاهاً دينياً عميقاً ربما يتسم بالإيمان[41].

بقيت كلمة أخيرة فى هذه الدراسة وهى :

أن فروم على قناعة بأنه لن يستطيع إنسان كائناً من كان أن يدعى امتلاك معرفة بالله تؤهله لأن ينتقد الآخرين، أو يكفرهم، أو يدينهم لاختلاف عقائدهم عن عقيدته، ولا يمكن بالمثل أن يدعى أن فكرته عن الله هى الفكرة الصحيحة بإطلاق[42].

ورغم وعى فروم بهذه الحقيقة، إلا أنه كان يحاول دائما فى كتاباته وأطروحاته أن يمزج بين الأفكار التى تنتمى للديانات الإبراهيمية وبين غيرها من الأفكار الأخرى التى تنتمى لديانات وفلسفات إنسانية . ويبدو أن فروم لم ينتبه بما فيه الكفاية إلى أن الديانات الإبراهيمية الثلاث تختلف فيما بينها اختلافا جذريا، وتتناقض تماما مع أى أفكار غريبة عنها أو لا تنتسب لنصها الدينى، ولعل السبب فى ذلك يعود إلى مركزية المقدس فى كل من هذه الديانات، وأعنى بذلك النص الدينى الذى يعتقد إنه كلمة الله، وبالتالى لا يجوز نقده أو الشك فيه أو حتى

---

[39] Fromm : Psychoanalysis and religion,: P118

[40] Ibid: P119

[41] Ibid: P119.

[42] Ibid: P122

تأويله، ومن ثم فإن أصحاب كل ديانة من هذه الديانات يعطى لنفسه الحق فى التحدث باسم الإله، ويؤمن بأنه الأقرب إليه، ومن ثم فإنه يستحوذ على الحقيقة المطلقة أو المقدسة التى تجعل كل الحقائق الأخرى باطلة إن لم تكن مدنسة . ولا شك أن المطلقات أو القداسات لا يمكن أن تتحاور أو تتعايش معا أو مع غيرها،والدليل على ذلك ما تشهده منطقة الشرق الأوسط حالياً من صراعات وتناحرات طائفية ومذهبية مجنونة ومستعره يحركها الصراع الوهمى القائم على امتلاك المقدس ووهم الاصطفاء . ذلك الصراع الذى لن يكون له سوى نتيجة واحدة هى الموت المجانى لعشرات ومئات الآلاف من الأبرياء الذين يذبحون تحت راية المقدس وباسم الإله.

فضلاً عما تقدم نلاحظ أن الصورة التى قدمها فروم عن الإله اليهودى غارقة فى النظرة الذاتية الضيقة وتكاد تكون انتقائية تماما، إذ تغاضى فروم عن الوجه الآخر للإله اليهودى، الوجه السادى المتعصب، وقدم لنا صورة منتقاة ومصفاة من كافة شوائب اليهودية . ويبدو أن مفهوم فروم عن الإله اليهودى يعانى من حالة اغتراب حادة .

على أية حال فإن هذه الملاحظات النقدية لا تقلل أبدا من قيمة إريك فروم كمفكر إنسانى عظيم ظل طيلة حياته يدافع عن الحرية وعن حق الإنسان فى الاستقلال إنه بحق كما قال عنه جون شار Shaar :

" إن فروم هو رجل القرن العشرين ... الذى تحدث بحرارة عالية عن الحرية والعدالة والحب، والذى جعل أعظم قضاياه قوة الروح الإنسانية، لقد أراد بجدية أن يعلم البشر الطريق إلى الحرية بغير عزلة، والسبيل إلى العقل بغير مذهبية، وحب الذات بدون أنانية، والسلطة بغير قمع، والدين بلا لا هوتية [43]"

[43] John Schaar : Escape From Authority, Basic Books, New York , 1961, P4.